الأهرام

المصدر: الأهرام

التاريخ: ٤ أكتوبر ١٩٩٢

العنصرية الثقافية

هل تهدد العالم مرة أخرى؟

عادت العنصرية لتطل بوجهها المقيت اللاانساني.. لتتغلغل في نسيج الحياة وتصبغه بلون اسود قاتم ، وليتحول حق الانسان في البقاء - في مواجهة حرب الابادة ، او على اقل تقدير الطرد - الى قضية لا تحل الا بالرصاص..

ولان الحياة اشبه بالاواني المستطرقة فلقد امتد اثر العنصرية ، التي اسفرت عن وجهها القبيح بوضوح ، ودونما خجل في السنوات الاخيرة ، ليلون المفاهيم الثقافية والحياة الادبية في اكثر من مكان في العالم ، ولتطفو على السطح اكثر من قضية بعضها قتل بحثا ، والبعض صنعته الاحداث الجارية مثل اثر الفكر العنصري على الادب المعاصر ، وقضية الثقافة القومية في مواجهة الفكر العالمي ، وثقافة العامة وثقافة الصفوه واثر وسائل الاعلام ، خاصة الصحافة على شكل الادب .

سناء صليحة

ولقد جرت العادة عند تناول قضية العنصرية ، واثرها في الادب ، مناقشتها من خلال التراث الادبي الامريكي والافريقي الحافل بالاعمال المعبرة عن محاولة الخروج من سجن العنصرية، ولكن ومع بداية التسعينات التي شهدت موجة النزاعات القومية والخلافات العرقية اللاانسانية ، اكتسبت العنصرية ابعادا اعمق واشكالا جديدة .. ففي فرنسا والمانيا وبريطانيا اتخذت النزعة القومية شكلا عنصريا معاديا لكل ما هو اجنبي ، وبدأت محاولات مستميتة بهدف طرد الاجانب .. كذلك انتعشت العنصرية في شرق اوروبا وجمهوريات الكومنولث الجديدة على ارضية من الصعوبات الاقتصادية.

وهكذا وعلي حد قول المؤرخ جيل ديلاتو في كتابه «نظرية القومية» اصبح الشعور القومي في اوروبا مجرد ستار يخفي وراءه العنصرية..

وبالطبع لم تكن ، ولن تكون الحياة الثقافية بمعزل عن التحولات التي ظهرت ، فبدأ البعض يحاول دراسة تاريخ الادب من منظور عنصري، وكانت احدث هذه المحاولات كتاب جون كاري « العامة والصفوة » الذي حاول خلاله ان يؤكد ان الادب الاوروبي المعاصر في مجمله كان صدى لفكرة تفاوت قدرات الاجناس ، وتميز بعضها عن البعض ، وان الكتاب الانجليز تعمدوا ان يعزلوا العامة عما يكتبون ، ليشكلوا لانفسهم لغة عنصرية ، فحواها لا تختلف عن افكار هتلر العرقية .. وان وسائل الاعلام وخاصة الصحافة في اوائل القرن عمقت الفجوة بين ثقافة العامة والصفوة بتبنيها لاعمال ادبية تداعب حواس القارئ العادي ولا ترتقي به ..

فيرى الكاتب ان الحضارة الاوروبية قامت على فكرة الشعور بدونية الجماهير وعدم الاعتراف بادميتهم ، ويؤكد ذلك من خلال استعراض افكار كبار الكتاب الذين شكلوا الفكر الأوروبي المعاصر ، مثل نيتشه الذي كان يرى ان العامة اشبه بافرع اشجار يعشش فيها الدود ، ويتمني ان تهب عاصفة لتقتلعها ليستحق بذلك لقب عدو الديمقراطية الذي اطلقه عليه يتس ..

ويرى المؤلف ان افكار نيتشه شاركه فيها مثقفو وكتاب اوائل القرن العشرين ، بل انهم عبروا بصورة واضحة عن خوفهم وكراهيتهم للعامة بخلق نوع من الادب (الحديث) لينأى بهم عن القارئ العادي وليحفظ لهم احساسهم بالتميز ويسوق الكاتب أكثر من مثل ليؤكد نظريته ، ففي مسرحية ابسن - عدو الشعب - كان الفرد المعزول الوحيد الصادق ضحية للعامة الفاسدين .

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

كذلك فقد ربط ت . س . اليوت في قصيدة الارض الخراب بين العامة والاموات وسبقه في ذلك توماس هاردى فى عام ١٨٨٧ ، عندما قال انه يمكن تقسيم البشر الى قسمين : الاول : يعيش باسلوب ميكانيكى فاقدا للعقل والروح ، والثانى ارواحهم شفافة تتعذب .. اي ان الناس قسمان :: ارواح أو آلات .. اثير او طين ..

نفس الفكرة لاقت قبولا عند د. هـ لورنس ، فعندما ذهب الى المكسيك شعر بتفوق من الاجناس وبتميزه هو شخصيا فكتب ..

ان اشكال الحياة العليا هى التى تحيا ، اما الباقى فهو لا يمثل الا مجرد صورة من صور البقاء .. الحياه اوضح فى الازهار منها فى الحشائش .. فى الثعبان اكثر من الفراشة .. فى أنا .. اكثر منها فى المكسيكى الذى يجر لى العربة..

ثم كتب مرة أخرى فى ١٩١٥ فى إحدى رسائله يقول : انه من الافضل ان يرسل الله فيضانا آخر ليخلص الارض من العامة، ويشبه موت ملايين البشر بتساقط اوراق الاشجار فى الربيع .

واذا كانت العنصرية او الشعور القومي قد اعادته للوجود فى اوروبا افكار اشبه بالافكار النازية ، فالامر يبدو مختلفا تماما على الجانب الآخر من الكرة الارضية ..

فقد كان الشعور بالتمييز العنصرى واحياء الشعور القومى فى افريقيا التى عانت من افتقاد الحياة الثقافية نتيجة للقوانين التى تفرض الحظر على نشاط العديد من الكتاب الافريقيين ، وتحول دون اتصالهم بالحياه الادبية خارج البلاد دافعا لمحاولة خلق شكل روائى خاص وموضوعات تعبر عن العادات والتقاليد واحياء التراث القومى من خلال الاتجاه للادب الشعبى الذى يعبر عن حياة الناس ، فتقول نادين جورديمر الفائزة بجائزة نوبل فى العام الماضى: لقد اصبح الهدف الآن خلق ثقافة ما بعد الاستعمار، ثقافة يكتبها الجميع ويقرأها الجميع.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية